الإنذار الحاسم

وقف القتال فجأة في بور سعيد بعد الإنذار السوفييتي.. وراحت سلمى تنتظـر عودة زوجها العقيد عادل وقلبها يكاد ينفجر شوقا، والدمعة تطفر من عينيها كلمـا تصورت أنه سيفاجئها عن قريب بقدومه..

سمعت جرس الباب يرن رنينا متواصلا وهي مـشغولة بنـزع الأوراق عـن النوافذ، فظنته جاء وراح يمزح معها، واذا بابنتها حنان قد ارتقت علـى الـديوان تضغط إصبعها على الجرس وتضحك.. لقد اكتشفت الصغيرة لعبة جديدة تلهو بها بعد أن مات من دميتها، وقذف الكتب الى الأرض، وتفريغ محتويـات الأدراج.. ولم تملك سلمى نفسها من البكاء.. ان الشوق موجع.. وذكرت حين أطفئت الأنوار في الليلة الماضية ودوت صفارة الإنذار كيف تكومت هي والصغيران في فراشها، وكيف راح جهاد يبكي ويتململ بين يديها، وحنان تحاول الإلتجاء الـى حـضنها وتشد عليها الوثاق خوفا.. ضمتهما معا وبقيت في مكانها.. كيف تتعثر بهما الـى الملجأ في الظلام؟ بل ان الملجأ نفسه لا أمان فيه مجرد قبو خال من النوافذ.. ولم تلبث أن تمالكت نفسها وهي تهدئ من روع الصغيرين وأشعلت شمعة وقامت الى بندقيتها تحشوها.. ان عليها أن تضع ما تعلمته موضع التنفيذ.. ان عليها أن تكون مستعدة لتحمي طفليها لو حدث في دمشق ما حدث في بور سعيد.. كان الغـضب يشتعل في جوانحها.. وتتمنى لو أن الإستعمار النذل يتجسد فتفرغ فيه رصـاص بندقيتها وتريح العالم منه.. ولكن الإستعمار المجرم لا يموت بسهولة، ولا ينحسر بمحض ارادته.. انها معركة لا بد منها حتى يسطع نور الحرية لجميع الشعوب.. كانت تفكر وطفلاها يعولان, بالجنود المرتزقة الذين يتركون بلادهـم ويجلبـون الدمار والموت لغيرهم، ثم يموتون دون شرف في المعارك، وكانت تفكر بشعوب المستعمرين الذين يدفعون ثمن القنابل التي تنفجر والذخائر التي تفنى لقهر غيرهم من الشعوب، وهمست لنفسها:

- أكل تلك الآلام الإنسانية التي تزرعها الحروب لا يـساق اليهـا النـاس الاّ لتمتلئ جيوب حفنة من الإحتكاريين وتجار الحروب بالمال؟

وذكرت زوجها عادل، وملأ قلبها الإعتزاز والفخر أنـه هنـاك، يـساهم فـي المعركة التي لا بد منها لتصفية الإستعمار.. ولم تلبث أن سـمعت دوي القنابـل، فعادت الى طفليها الفزعين.. ماذا لو عاد عادل ورآها وطفليها تحت الأنقاض؟

ولكن لا.. ان في العالم قوى خير هائلة.. تحترم الإنسان، وتحتـرم المـصير الإنساني.. تبني ولا تهدم، قوى تحرر ولا تستعمر.. فلم تلبث حين وضعت ثقلها في الميزان أن همدت القنابل الغادرة على بور سـعيد وانقطـع سـيل المظليـين وتوقفت الحرب وضمدت جراحات شعبها البطل، وأنقذت مصر مما أشعل الغزاة عليها من حرب رهيبة مدمرة، وتحول كيد الغزاة الى نحورهم، وما حشدوا الـى دخانا يعمي بصائرهم، ويكتم صدورهم..

كانت سلمى تخيط وحنان تحادث المخدة الصغيرة في عربتها وتهـددها برفـع إصبعها وتقول "ببي.. أعو، أعو! دي دي, دي دي" وجهاد في سـريره يـداعب الخشخيشة بقدمه الصغيرة ثم يرفع قدميه الاثنتين ليمسك بها وهي تتأرجح حـين رن جرس الباب..

وطالعتها الضحكة الساحرة!.. انها لا تدري ما تفعل في فرحتها.. انها تمـرغ وجهها بوجهه وعنقه وكتفه وهو يشد عليها الوثاق:

- هل عدت الي ولن تذهب أبدا؟

لقد خشيت أن تكون فرحتها كفرحة سابقة رآها فيها نصف ساعة ثم أوغل فـي البعد!

وهرعت حنان لترى من القادم.. وحملها أبوها لهفا، ولكنها لم تلتهف.. كانـت تنظر بعينين دهشتين حذرتين وكأنها تنظر الى غريب.. وهتف بها وهو يقبلها:

- أنا بابا.. أنسيت بابا؟ كيف لو غبت طويلا!

ولكن حنان شاءت أن تقتصد بعواطفها في تلك اللحظة الجميلة، بـالرغم مـن إلحاحها بالسؤال عن والدها وهو غائب..

وذهب عادل الى سرير جهاد وحمله هو الآخر والصغير يغمغم ضاحكا "دا، دا، دا.. با، با، با" ولاحظ والده الأسنان الجديدة التي نبتت له، فدغدغه وقبلـه وهـو يقول "ما أحلى أسنانك يا بوذا!

... وفي تلك الليلة وقد حشر الصغيران بينهما في الـسرير بعـد أن أشـبعهما دغدغة ولثما وتقبيلا، امتدت ذراع عادل اليمنى لتوسد الرؤوس الثلاثة، واليسرى لتطوقها.. وكانت سلمى تقبل اليد الممتدة وتمرغ بها وجهها وهي تشعر بسعادة لا قبل لها باحتمالها.. وبدا لها أن عواطف أيام الخطوبة، وكل اللحظـات الـسعيدة الأخرى لا توازي مجتمعة جمال وخصوبة وروعة مشاعرها وقـد عـاد اليهـا حبيبها..

وقال عادل وهو يتلمس بحنان عينيها وفمها وأذنيها ويخلل أصابعه في شعرها:

- كم أنا مشتاق اليكم!

ودمعت عيناها وهي تقول:

- ونحن! ان الحياة دونك لا تساوي شيئا يا عادل!

* * *